

الصورة الشعرية التشبيهية في تفكير عبد القاهر الجرجاني البلاغي

The met aphorical poetic image in Abd al-Qaher al Jarjani's rhetorical thinking

1 الباحث : فوزية لعشاشي *

مخبر نظرية اللغة الوظيفية، جامعة الشلف، الجزائر

lachachifawzia@gmail.com

2 أ.د. العربي عمّيش

مخبر نظرية اللغة الوظيفية، جامعة الشلف، الجزائر

larbipaulrobert@yahoo.fr

تاريخ الإرسال 2020-12-02 تاريخ القبول 2021-03-11 تاريخ النشر 2025-09-16

ملخص:

يقع التشبيه في صميم الشعرية لأنّ بنيته التركيبية تتطلّب وعي المشبّه لحساب وضعية كلّ عنصر من عناصر الصورة التشبيهية ، وعبد القاهر يُعدّ من أبرز البلاغيين العرب الذين استوعبوا شروط التشبيه الجمالية أو الشعرية ، ويعتبر كتابة أسرار البلاغة من أبرز المراجع النظرية في موضوع التشبيه ، ونظرا لتمكّن عبد القاهر الجرجاني من فلسفة التشبيه فقد اجتهد في الكشف عن مستويات التشبيه ، فقال بالتشبيه العامي والتشبيه الحسن والتشبيه البديع ، والشعراء ليسوا متساوين في الإلمام بمتطلبات توظيف الصور الشعرية التشبيهية ، والتشبيه يأتي في القصيدة قليلا فلا يشمل مجمل الخطاب الشعري ، وإن مجيئه قليلا يدلّ على كونه قيمة شعرية لا يهتدي إليه ذوق الشاعر ، وإن قيمة التشبيه في صعوبة تحصيله بسهولة وإنما يتحقّق بناء على ما يمتلكه الشاعر من فطنة وقوة إبداع.

الكلمات المفتاحية: التشبيه، الجمالية، الشعرية، الصورة التشبيهية، الخطاب الشعري.

Abstract:

The metaphor sat the heart of poetry because its compositional structure requires the awareness of the analogy to calculate the position of each of the elements of the simile image, and Abdel Qaher is considered one of the most prominent Arab rhetorics who understood the terms of aesthetic or poetic simile. Al-Qaher Al-Jarjani from the philosophy of metaphor has endeavored to reveal the levels of the metaphor, so he said with the colloquial metaphor, the good metaphor and the beautiful metaphor, and the poets are not equal in familiarity with the requirements of employing analogous poetic images. Poeticism is not guided by the poet's taste, and the value of metaphoric difficult to attain easily, but rather is achieved based on the poet's wit and creativity.

Keywords: Simile, aesthetic, poetic, simile image, poetic discourse.

1. مقدمة:

اخترنا نظرية التشبيه في تفكير عبد القاهر الجرجاني البلاغي انطلاقاً من قناعتنا أنّ عبد القاهر يميل إلى الانتصار للإبداع والتجديد ، وحرية التفكير عندما يتعلّق الأمر بموضوع اللغة الفنية والشعر ، لأن تفكيره البلاغي أو اللغويّ يقع في صميم فلسفة اللغة أو علم أصول اللغة العربية ، جمع في نظريته البلاغية بين الفنّ والعلم ، واستند في كثير من أفكاره إلى حقيقة الانفعال الفطري باللغة والشعر ومختلف أوجه الفنّ الأخرى ، ولكي نقارب هذه المقدّمة الافتراضية بحثنا في مؤلّفه : أسرار البلاغة الذي فصل فيه الدرس البلاغيّ ، ودلائل الإعجاز الذي شرح فيه نظرية النظم كان فيهما يتحمّس لتقبّل كلّ جديد بديع دون تحفّظ وعليه ما المستخلص في هذه الجهود المشار إليها ؟ هل استطاع عبد القاهر أن يعود بالنحو إلى أصول الانفعال البلاغي باللغة ؟ وهل استطاع تحكيم الذوق ، وابرار التخريجات النحوية على أنّها قناعات حسية أو ذوقية ؟.

2. لغة الشعر في تفكير عبد القاهر الجرجاني:

لا يتردد عبد القاهر الجرجاني في انتقاد المكرسين للنموذج المتحفّظ ويصفهم بفساد الذوق ، ففي شهادة نقدية ثفاضل بين نموذجين شعريين هما لبشار بن برد أشاد عبد القاهر الجرجاني بالنموذج العفويّ الحرّ لأنّ بشاراً كان فيه ينطبع خارج الشعرية العربية المألوفة¹ ، حيث كان عبد القاهر يركّز على العودة بلغة الشعر إلى أصولها الانفعالية أعني البدوية الأعرابية لا لغة المولّدين² ، والذي يراجع هذا الموضوع في كتاب دلائل الإعجاز يجد الموضوع متعلّقاً بتفاوت الأساليب تقديماً وتأخيراً وحذفاً وبسطاً واختصاراً ، فالزيادة في المعنى لدى عبد القاهر الجرجاني تستدعي ابتداء الأساليب التعبيرية التي تجد في التوقيعات التشبيهية فضاء لتفعيل الوظيفة الشعرية ، فالشعراء على اختلاف استعداداتهم الإبداعية يتفاوتون في إدراك الفوارق الجوهرية والشكلية بين المتشابهين وإن تفاوت الشعراء في تحديد المفارقات والملاءمات يدخل في صميم الجمالية الشعرية ، وابتغاء تحقيق هذا الاتساع في الوظيفة الشعرية مقرونة بلياقة التفهّم الدلالي فإنّ عبد القاهر الجرجاني في نظرية البلاغة لا يكفي باعتماد أصل المعنى الذي يراه محدوداً لا يلي متطلبات الجمالية الشعرية ، بل يتعدّى ذلك المستوى البسيط أو العامي إلى تطلّب الزيادة في المعنى عن طريق الاستقراء والتأويل إضافة إل اختراع الشاعر الأساليب التعبيرية الحاملة لما تقتضيه المبالغة، والخصوصية فيه³.

3. الشعرية تشكل نظرية في المتن الجرجاني:

وعلى الرّغم من أنّ ابن المعتز ذكر التشبيه في كتاب البديع⁴ إلّا أنّ إيلاّح هذا الشّاعر بالاستعارة غطّى على نظره في مجال النقد الأدبي ، ولم يزد على استعراض عينات شعرية تشبيهية ابتدأها بإمامهم امرؤ القيس ورؤبة وزهير والأعشى⁵ ، وكان قبله ابن سلام امتدح أسلوب إيقاع تشبيهات امرئ القيس في التشبيه ، وعدّه فيها إماماً مُفْتَرِعاً " ... شبه النساء بالظباء والبيض والخيّل بالعقبان والعصيّ ... وأجاد في التشبيه ... " ⁶ ، وكلّها حسب

اعتقادنا إيقاعات تشبيهية استفادها الشاعر من معاشتها في الحياة تجريبا ، وذوقا حتى تربى لديه حسّ المقاربة بين المتشابهين .

ويبدو أنّ التشبيه صلةً بميلاد الشعر ، وأوليات تفرعاته نظرا لأنه ما يزال ذا إيقاع يوحى في حدّ ذاته بالشعرية ، وبالتحديد فإنه من المحتمل أن يكون للإيقاع التشبيهي صلةً بميلاد الشعرية فقد قال الباقلاني واصفا كيفية جنوح الحسّ لتعاطي الشعرية : "... إنه اتفق في الأصل غير مقصود إليه على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسنوه واستطابوه ، ورأوا أنه قد تألفه الأسماع وتقبله النفوس تتبعوه من بعد وتعلموه ..."⁷ ، فالحس يحتفل بتتبع الموازنات وتتبع المماثلات ، والانتقال من جزئية إلى ما يقابلها في الشيء الشبيه به ، فإجالة الفكر بين قيمتين حسيتين مقربتين بعضها من بعض يوّلّد إحساسا بمعرفة حسية المتلقون ليسوا فيها سواء ، بمعنى أنّ هذا النوع من المعرفة الفنية أو الإيقاعية يختصّ بها كلّ حسّ بحسب ما أوتي من الفطن ، ونظرا لتعويل الشعراء على التشبيه في توقيع معانيهم الشعرية فإنه كان يأتي قليلا في الشعر نادرا ، وإن حضوره في القصيدة كان يزيد من قيمة القصيدة ويسبغ عليها مسحة إبداعية .

والذي يستقرئ بنية إيقاع التشبيه يلفيه توزيع لغويّ ثابت محدّد لا يستطيع شاعر مخالفة ذلك البناء ، والتشبيه لخصوصيته الإيقاعية المعنوية هو في حدّ ذاته قائم على بنية توزيعية أو تشكيلية شبيهة بالوزن العروضي ، فإجراؤه يقتضي توزيعا منتظما قوامه : مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه شبه ، ولكل منها محلّ أو موضع مثله مثل الصدر والعجز والوزن والقافية ، ومن جهة أخرى فإن تعدّد العناصر التشبيهية ، وتوزّعها وفق البنية التشكيلية المتحقّظة تقدما وتأخيرا وحذفاً بمنحها وظيفة شعرية .

4. الحداثة الشعرية في تفكير عبد القاهر الجرجاني:

يتّسق تفكير عبد القاهر الجرجاني البلاغي البعيد من قيود التعليميّة مع تفكير بعض البلاغيين العرب الذين عُرفوا بتحسّسهم لاقتراح الجديد، وذلك بحثا عن شروط الجمال حيث " تقوم شروط الأسلبة على مخالفة المعيار النحوي ليتجلى الخطاب في هيئة التأسلب"⁸ ، ولا يكون ذلك التميّز الأسلوبي إلا بعامل المجاوزة ، والجاحظ خيرٌ من استدلال بما ذكره في الحيوان من تجاوز حدود المعرفة الحسية أو المعرفة التخيلية ، فهو لا يتردد في أن يعتمد على الخرق والتجاوز سبيلا لابتداع المستطرف من المعاني والأفكار ، كان ذلك عندما وقف على قوله تعالى : إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعتها كأنّه رؤوس الشياطين⁹ ، حين قال: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهّمه ، ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدلّ على التخويف بتلك الصورة ، والتفريع منها ، وعلى أنّه لو كان شيء أبغ من الزجر من ذلك لذكره ..."¹⁰ بمعنى أن الحسّ الشعري لا يتعامل مع المعطيات الحقيقية والواقعية فقط ، وإنّما يستطيع وعي الإنسان تخطيّ حدود معطيات المادّة ويتفاعل مع الصور الخيالية والوهمية ، حيث ينسجم العاملان عالم الماديات وعالم الروحانيات أو الخيالات ، فالمبالغة في وصف الأشياء يقود إلى الدخول في الوهميات فهذا كان حال أبي تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال¹¹ ،

وقد كان الشاعر يعتمد مناسبات الإضافة والتشبيه ليبالغ في تفعيل الدلالات والمعاني ولذلك وضع الأمدي بابا في كتاب الموازنة عنوانه بأخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى¹².

وقد حدّد الفلاسفة المرجعية المعرفية التي يصدر عنها الحسّ التشبيهي فقالوا: تكون "... حسية أو معنوية، حقيقية أو وهمية ..."¹³ فهذه المرجعيات المعرفية تُوقّع الدلالة التشبيهية لأنها لا تكاد تخرج عنها، والصورة التشبيهية التي وردت في القرآن الكريم سالفا مرجعها الدلالة الوهمية، وإنّ بلاغة القرآن التي تقاس بها حدود الفكر الإسلامي والتصور المتعقّل قد جاوز إيقاعها في الآية السابقة حدود المعقول طلبا لما أوقع وأكثر فاعلية غير أن الاسترسال في طلب المبالغات قد يُخرج الفكر عن منهجه الإنساني فقد كان أبو تمام "... يريد البديع فيخرج في الحال..."¹⁴.

5. التقاء الشعرية مع الإيقاع التشبيهي:

والتشبيه ليس محصورا في صورته البسيطة أو العامة، وإنما يعرف الشعراء من بلاغة إيقاعاته بحسب ما هَيئُوا له من درجات الإبداع المتمثل في الاستعداد، فالشاعر يتركز على قوّته التصويرية والحسية وخصوبة الخيال ليوقّع أقصى درجات التوقع التشبيهي، "الايغال في طلب الاغراب في المعنى الشعري مخفوف بمزلق مجانية الشعرية والوقوع خارج كونها..."¹⁵ فيتفرّد كلّ شاعر بحسب ما حدّسه من الصور، والخيالات معزّزا بمبالغاته التشبيهية بما يكون قد استفادة من تجارب الحياة العملية، كلّ شاعر يغرف من معين ما حصّله من تجارب الحياة، فالسيرة الحياتية هي التي تثري التوقعات التشبيهية، ويمكننا أن نفسّر التقاء الشعرية مع الإيقاع التشبيهي بما كان أبو العلاء المعري قد ارتآه في تفسير الانطباع بالشعر، ففي تعريفه للشعر قال: "... والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحسّ..."¹⁶ فالبنية التشبيهية تقوم في جوهرها على أعمال الحسّ التقديرية من حيث درجة التقريب بين المتباعدين، مع ضرورة الإشارة إلى أنّ مفهوم التقريب أو إجراء حسّ معتمداً في كثير من الظواهر اللغوية نكتفي بالإشارة إلى قانون أو إيقاع التقريب بين أصوات الحروف الذي أشار إليه ابن جني في كتاب الخصائص¹⁷، فالمرج بين المعاني يتفق مع حسّ المرح بين الحروف وأن لا شيء يبقى بمنأى عن التجاوب بين قيم الأشياء التي تناسبه، وذلك "... لقوّة إحساسهم في كلّ شيء شيئا، وتخيّلهم ما لا يكاد يشعر به من لم يألف مذاهبهم"¹⁸، فالتساند إلى تحكيم القياس الحسي مرجعية انفعالية ينسجم في سياقها الشعر والتشبيه، فكلاهما يتركز على الحسّ التوقيعي.

كأنّ القلب ليلة قيل يُغدى بليلى العامرية أو يروح

قطاة عزّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح¹⁹

فالتركيز الحسي الذي عرّف به الشعراء العذريون يبدو عاملا حاسما في تقوية إيقاع التشبيه، فقد ربط قيس بن ذريح بين حيزين متباعدين، حيز تحبّط القطاة عالقة في الشراك من جهة مشبها بها القلب، وانتفاض القلب

وتخطبه في صدر قيس بن ذريح والرابط بين المتشابهين هو حركة التخطب، وطلب الخلاص بدون جدوى، فمعاشة الشاعر حاليا لمعاناة القطاة أمده بخاصية توقعية استطاع بفضلها أن يبدع في الموقف الشعري البديع.

وعند تفكيك البنية التشبيهية في شعر قيس بن ذريح تبين لنا الروابط التالية:

المشبهه:

القلب القطاة

وجه الشبه الجامع بين القيمتين: عزّ الشرك وقد علق الجناحُ

فتفتن قيس بن ذريح لتمثل ما يعانيه طائر القطة وهو متخبط في الشرك لا يمكن أن يحصل بسذاجة ، وإنما يتطلب تمثل الشاعر لمعايشة افتراضية لتلك المعاناة فينقلها الشاعر من جسم هو غير جسمه وشعور افتراضي هو غير شعوره إلى تبني للفعل افتراضي استطاع الشاعر أن يبرزه بلاغيا ، فقوة تصرف الشاعر هي المسوغ الفني المولد للقناعة بأن حدث الوقوع في الشرك ، وصورة المعاناة كأن الشاعر قيس بن ذريح قد جرّها فعلا .

حيث تبرز براعة الشاعر قيس بن ذريح التشبيهية مساهمة في اختراع الشاعر صورة القلب يتعذب بالمماثلة مع وقع فيه طائر القطاة ، وقد علق جناحها بالشَّرك ، وهذا الإيقاع التشبيهي استند فيه الشاعر إلى توظيف قوة تحسّس مكابدة الحرمان والتشوّق وتصورها بلاغيا وقد عُرِفَت قبيلة الشاعر بعذريتها وازهار القول الشعريّ فيها فكان يسهل على شعرائها العذريين تمثيل دلالات المعاناة وصورها البلاغية.

6. تفسير عبد القاهر الجرجاني للإيقاع التشبيهي وشعرية التشبيه:

إنَّ لعبد القاهر الجرجاني تفسيراتٍ نفسيةً وفلسفيةً اعتمدها منهاجا لتفسير الإيقاع التشبيهي أو شعرية التشبيه حين قال: "ومبنى الطباع وموضوع الجِلَّةِ على أنَّ الشيء إذا ظهر من مكانٍ لم يُعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدنٍ له ، كانت صباغة النفوس به أكثر ، وكان الشَّعْفُ منها أجدر..."²⁰.

ومّا يدلّ على أن التشبيه زينة بلاغية لا يُتَوَخَّى منها معالجة موضوع القصيدة وإنما إثراء إيقاعاتها أن التشبيه لا ينبغي للشاعر الإكثار منه في القصيدة وإنما الأفضل أن يأتي نادراً فيدخل في مزايا البديع²¹.

ميّز عبد القاهر الجرجاني بين ضربين من التشبيه ، تشبيه بسيط لا يحتاج قارئه إلى والجهد الفكري تحقيقا لبلاغة التأويل فهو عامّي شائع ، وتشبيه آخر يكون الشبه فيه محصّلا بضرب من التأويل²² ، وبما أن التشبيه ذو إيقاع ثقافي مركّب يحتاج موظّفه إلى رؤية إبداعية تفوق الرصيد الأدبي المحصّل لدى العموم فقد سعى عبد القاهر إلى الإحاطة بمختلف المنازع التشبيهية ففصّله مجالات واختصاصات من مثل تشبيه الصوت بالصوت ، وتشبيه اللون باللون وتشبيه ما يتعلق بالذوق و الملموسات وكذا ما يتعلق بالشمّ ثمّ عدّ هذا من اختصاص الغريزة والطباع والأخلاق كلها تدخل في الغريزة²³ ، فالحسنّ كما قال أبو حيان التوحيدي : "... لا يعشق الموحدة والمناسبة والاتّفاق إلا بعد أن يجدهما في المركّب كما أن العقل إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط ، فكلّما قوي الحسنّ باستعماله التّدّ صاحبُه بقوّته حتى كأنّه يسمع ما لم يسمع بحسّ أو أكثر ، وكما أنّ الحسنّ إذا كان كليلا

كان الذي يناله كليلا ، كذلك الحسن إذا كان قويا كان ما يناله قويا "24. وبما أن التشبيه نتيجة لعمل الحسن فإن التشبيه يستوعب الصور الشعرية الأكثر تركيبا لأنّ في أعارف البلاغيين والفلاسفة العرب "... ما هو أكثر تركيبا فالحسن أقوى على إثباته ... "25، وهذا التشبيه الذي هو قابل للقراءة الأولية متجاوب معها عبد القاهر تشبيها بسيطا يُحصّل قراءة بالمماثلة ، أو ما ندعوه التربية الفنية القائدة إلى إصابة المقادير التشبيهية ، وبعد أن حدّد عبد القاهر الجرجاني مستوى التشبيه الأول وعدّه بسيطا ذهب إلى تقديم النموذج التشبيهي الثاني وهو الذي تحتاج في قراءته إلى لمّ شتات مجموعة من المعطيات أو القيم لا يقوى كلّ قارئٍ للتشبيه على تحصيلها وفي هذا الضرب من التشبيه قال فيه: "... إن ما طريقه التّأوّل يتفاوت تفاوتاً شديداً فمنه ما يقرب مأخذه ... ومنه ما يدقّ ويغمض حتى يُحتاج في استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة "26.

انجذبت الشعرية منذ أوليات نشأتها إلى إيقاع التشبيه هو ذاك الإجراء الذي سمّوه المحاكاة ، فالتصوير التشبيهي في الصورة الشعرية يمنح الشعرية كثيرا من دلالات التعجيب والإبداع ، ونظرا لتمكّن التشبيه من الوظيفة الشعريّة جعل ابن أبي عون التشبيه صنفا ثالثا من أصناف التشبيه بعد شعريّة المثل وشعريّة الاستعارة فقال: ومنه التشبيه الواقع النادر "27 كما هو مناسبة لبث بلاغة الإغراب ، لهذه الأسباب المنهجية والوظيفية تقاس الشعرية بالزخم التشبيهي فلا يمكن أن تتصوّر قصيدة خالية من أيّ توقيع تشبيهيّ ، والتشبيه بناء على القيمة الاجتماعية أخذ قيمة محورية في كثير من المواقف التاريخية والدينية من ذلك قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم لما نجّاه من بطش الأعداء: وقولهم إنّنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبهه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وما قتلوه يقينا "28 . فالتشبيه جدير بأن يصطنع الوهم في الذهن ، ويولد القناعات التي تنبني على الصورة التشبيهية الثابتة ذهن المتوهّم ، فالصورة التشبيهية المستقرة في أعين المشركين هي التي ولّدت في نفوسهم قناعة الانتصار بعد التأكيد واليقين المنبني على الوهم في أعينهم ، والمغالطة التشبيهية هنا في هذا المقام مادّتها المشاهدة البصريّة التي هي من أقوى البراهين ، فيتعزز حلول المشبه محلّ المشبّه به ، وليس من الصدفة أن نلاحظ توافق فيلسوفان عربي من القدامى وفرنسي من المحدثين على فاعلية حاسّي البصر والسمع في توقيع الدلالات البلاغية فهذا أبو حيان التوجيدي قال: "... ومّا يجب أن يُعلّم أنّ السمع والبصر أخصّ بالنفس من الإحساسات الباقية ، لأنّهما خادما النفس في السرّ والعلانية ومؤنساها في الخلوة ، وممداها في النوم واليقظة ... "29، وعلى ذات النسق قال جان ماري جويو Jean marie gouyou منتقدا اقترنت الذي قال : إن حاسّي السمع والبصر هما اللتان تستعملان استعمالا غائيا كثيرا في الحياة، وإن الحاسة إذا ارتبطت كثيرا بوظيفة الحياة الجسمانية أي البيولوجية تُحرّج بذلك عن الوظيفة الإمتاعية، ورأى أنّ حاسّي السمع والبصر هي الأكثر غائيّة في الحياة وخالفه جويو الذي رأى أن أيّ إحساس يمكن أن يكتسي طابعا جماليا إذا بلغ درجة معيّنة من الشدّة والترجيع في الشعور ... "30 ، فالشدّة والترجيع يسهمان في الاهتداء إلى بناء النسق أو الإيقاع في الألفاظ والمعاني ، وصولا إلى ما نسمّيه الوزن عامة والوزن الشعري خاصة.

يُعد عبد القاهر الجرجاني من أوثق البلاغيين العرب السابقين إلى وصف الشعرية فالنظرية البلاغية كما جاءت في كتبه تستمد مقاييسها مما هو بديع أو جديد فشجاعة التفكير النقدي المتكررة في معظم آرائه أظهرت تفهما عميقا للجمالية الشعرية ، فقد كان عبد القاهر الجرجاني سباقا لاقتراح كثير من علامات التجاوز التي توقف عندها مفهوم الشعرية العربية ، وإنّ تعلّق كثير من التشبيهات بظاهرة الشمس الطبيعية تأتي من عدة مواصفات تجتمع لتمنح الشمس وزنا في الاعتبار الانساني منها علوّها في السماء ، وإشعاعها وإضاءتها وإمدادها الإنسان بضوء النهار المفيد للإبصار ، إضافة إلى ما توفره للإنسان من التدفئة التي تمنحها، هذه المزايا الكونية هي التي أملت على الشعراء تقريبا جميعهم لاختيار كوكب الشمس نموذجا لتوقيع التشبيهات الشعرية قال طرفة على وزن الطويل الذي عروضه مقبوضة مفاعلن وضربه مثلها مقبوض مفاعلن:

ووجه كَأَنَّ الشمسَ حلّت رداءها عليه نقيّ اللون لم يتحدّد³¹

ونظرا لاستفاضة دلالات الشمس التشبيهية فإنّ طرفة لم يشبّه بالشمس كاملا كوّهّا ، وإنّما أخذ بعض جماليّاتها وهي الاستضاءة والنور فوجه المرأة المذكورة في شعر طرفة أصبح مضيفا باستعارته ميزة الضوء والبهاء ممّا تُسبّغ من إضاءة ودفع على الأرض ، فالوجه نقيّ اللون ، نَظَرٌ لم يتحدّد فبقي بذلك الإلحاق شائبا يافعا ، وبما أن الإجراء التشبيهيّ يقوم في إيقاع دلالاته على عمليّة الإلحاق ، بمعنى إلحاق الناقص بالتأمّ فقد ألحق طرفة نقصان وجه المرأة بتمام فائدة الشمس ولم تزد الشمس في ذلك على أن حلّت رداءها وهو بعض من كلّها ، وفي هذا إشارة على نباهة الشاعر وقوّة شاعريته إذ بفضل تلك الفطنة والنباهة يستطيع الشاعر أن يخترع أوجه الشبه ، فالشائع هو تشبيه المرأة بالشمس ترقية وإعلاء لها ، ولما كثر هذا وصار كالحقيقة من شدّة إقبال جميع الشعراء عليه " ... لأنّ المجاز إذا كثر صار كالحقيقة ..."³²، صار لزاما على الشعراء أن يبحثوا عن أوجه الشبه الخفيّة التي لا يتوصّل إليها بالخبرة البيئيّة ، والطبيعيّة والحياتيّة والاستعداد الفطري لقول الشعر .

وذلك الذي أحال عليه عبد القاهر الجرجاني عندما أدرج حكاية عن عبد الرحمن بن حسان عندما كان صبيا حيث استملح إغرابه في التشبيه بين متباعدين ، فقد جاء عبد الرحمن أباه وهو صبيّ شاكيا : لسعني طائر ، فقال له حسان : صفه يا بُنيّ ، فقال : كأنّه ملتفّ في بُرْدَيّ حِزّة وكان لسعه زنبور ، فقال حسان بشهادته على شاعريّة ابنه عبد الرحمن الصبيّ³³ فالتقريب بين المتباعدين في انطباع عبد الرحمن بن حسان هو بؤرة الشعرية التي احتفل بها أبوه حسان بن ثابت ، وإنّ السرّ في ذلك أنّ النفس تفرح بالإغراب إنّها تستمدّ منه الإحساس بالشعرية " ... لأنّ الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلّما كان أطرف أعجب ، وكلّما كان أبعد كان أعجب ، وإنّما ذلك كنوادر كلام الصبيان ، ومُلحّ المجانين ..."³⁴، إنّ التعجيب من أبرز المؤثرات الشعرية وهو معيار شعريّ ثابت لا يتغيّر بتغيّر الآراء النقدية، نستدل على شعريّة التعجيب والإغراب بما قال به حسان بن ثابت حين شهد بشعرية ابنه عبد الرحمن وهو يعرف

أن ما انطبع به ابنه الصبي ليس قصيدة حيث لا وزن ولا قافية ولا تبيت ولا تشطير وإنما هو كلام صبي أخلص لإملاءات الحسّ فقال قصيدة في عبارة قصيرة نالت إعجاب البلاغيين والنقاد قديما وحديثا .

يختلف الشعراء في تحصيل بلاغة التعجيب والإغراب فهي ثقافة ممزوجة بالسيرة من مثل الشجاعة والعبث والجنون وهي مواصفات تحضر في كتب النقد الواردة في ذات التوجّه لذلك نبه أبو حيان التوحيدي على مثل هذا السلوك المعرفي أو السيرة الشعرية ، فهي ترتبط بكفاءة الشعراء ومن ثمة فإنهم يتفاوتون في درجات الشعرية فبقدر درجات أحاسيسهم يستطيعون عرض المعاني الشعرية البديعة نعي بها المعاني التي لا يشاركون فيها كل شاعر لأنّ كلاً منهم ينهل مما أوتي من درجة قوة الذكاء .

كأنتك شمس، والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكب³⁵

يمكن تخريج التشبيه على أنه واقع في فائدة دلالة أداة التشبيه : كأنتك والغرض التشبيهي حاصل في معنى الشعر ، جعل النابغة النعمان شمساً من حيث دلالة السطوع والغلبة والعلوّ وكلها خصال تليق بمكانة الملك النعمان فهو يشبه الشمس في المزايا المذكورة ، وفي المقابل جعل الملوك الآخرين يختلفون عنه منزلة فهم كالقواكب يتعلّق نفعها بالملك النعمان حيث دونه تنقطع أسباب بروزهم ووجودهم ، ثم ركب النابغة قيمة دلالية تفاضلية مرتبطة بالهيئة الأولى فسّر فيها أفضال النعمان على بقية الملوك الخاضعين له فقال : إذا طلعت شمس النعمان تلاشى حضور الملوك الآخرين ، ونظرا لبراعة القوة الناطمة في شعرية النابغة فقد استوفى الدلالة التشبيهية المركبة في مصراعي بيت شعر واحد فاكتمل به .

فإيقاع القبول يستدعي من الشاعر أن يزيد على الشعر شعرية ثانية هي شعرية التشبيه وهي كفيلة بأن تفتح للمتلقّي الذي هو روح العفو المسامحة، وإيقاع بلاغة التشبيه هي التي بقوة إيقاعها تولّد في نفسية الممدوح لياقة الشعور بالاستعلاء وهو الهدف المرجو من كل شعر الذي غرضه المديح.

يبدو أن الصورة الشعرية التشبيهية تستلذ لوحدها حتى ولو كانت معزولة عن الإجراء القصدي، إذ نلاحظ في إقبال عامة الناس على استعمال التشبيهات في الخطابات اليومية العادية خير دليل على أن الإجراء التشبيهيّ أساس التواصل، لا يمكن للناس تجاهل أثره في تعزيز مقومات الخطاب التأصلي، والشعراء في كل عصر، مهما حملهم مشروع تحديث الشعر ، لا يستطيعون الاستغناء عن توظيف إيقاع الدلالات التشبيهية ، فالشعر بناء على ذلك التلازم بينه وبين الإيقاع التشبيهي لا يستطيع الاستغناء عن هذه الزينة البلاغية .

وعلى الرغم من ذهاب عبد القاهر الجرجاني في موضوع التشبيه مذهبا المعالجة المسهبة في كتاب أسرار البلاغة ونهجه سبيل الاستقصاء والتفصيل والتصنيف لموضوع التشبيه إلا أن الجمالية الشعرية كانت دائما تنتهي به إلى تغليب الجانب الشعريّ أو الفني الجماليّ من إيقاع التشبيه ، وما اهتدى إليه بعد الدراسة التفصيلية أن ميّز بين مستويات الدلالة التشبيهية ، من حيث تمّ تفرعها إلى مجالات اختصاصية تستقي فاعليتها من النشاط الحسيّ فقال بنجاعة تشبيه المتجاوبين حسيا من مثل "... تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ...

وكتشبيه من جهة اللون ... وكالتشبيه من جهة الهيئة ...³⁶ وهذه المرجعيات المعرفية أو الثقافية التي يستند إليها الشاعر في إخراج المعاني الشعرية لها كما يبدو عدة اختصاصات فتشبيه الحدّ بالورد كلاهما مشاهدّ معانٍ وكذلك ينجذب تشبيه الشعر إلى الليل تجمعهما شدة السواد ، حيث يتطلب تفعيل قضيتين في بلاغة التشبيه نوعاً من التصرف في معاني المشبه والمشبه به الأصلية والحقيقية "...وردّ شيء إلى شيء بضرب من التلطّف ، وهو أدخل قليلاً في حقيقة التأوّل..."³⁷.

ويورد عبد القاهر الجرجاني نموذج تشبيهي آخر تحيّر لبشار بن برد وزن بحر الطويل:

كأنّ مئثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه³⁸

وقد قصد بشار قصد الإحاطة بالفكرة التي تصورت له في محيّلته ثمّ أتى إيقاع التشبيه ليلي شروط الإحاطة بالمعنى الذي قصد إليه، خاصّة وأنّ بنية التشبيه القائمة على الأركان المتعارف عليها مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه الشبه قابلة لاستيعاب كل المواضيع النحوية من جملة فعلية وجملة اسمية مع تصرف كل شاعر في نظم الكلمات اللازمة لبناء البنية التشبيهية مع مراعاة الشروط النحوية.

7. الخاتمة:

نستخلص مما سبق في موضوع الصورة الشعرية التشبيهية أن عبد القاهر الجرجاني لم يكتف برسم حدود الدرس البلاغي على غرار البلاغيين التعليميين وإنما جاوز ذلك ليتتبع كثيراً كل العلامات والأشكال والخصائص اللغوية المتميزة والبارزة فنياً وجمالياً التي يختص بها المبدعون سواء كان ذلك على مستوى الإبداع الشعري أو على مستوى الإبداع النقدي.

8. الهوامش:

¹ ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص 210.

² ينظر: نفسه، ص 211.

³ ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 205.

⁴ ينظر: ابن المعتز، كتاب البديع، ط 2، دار المسيرة، 1979، ص 68.

⁵ ينظر: نفسه، ص 74.

⁶ ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار النهضة العربية، بيروت، ص 16.

⁷ الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد صقر، دار المعارف، مصر، ص 63.

⁸ طاعة بن قرمّاز، بين الأسلوبية والنحو دراسة في التعالق والمجازة، مجلة اللغة الوظيفية، مج 7، العدد 1، مخبر نظرية اللغة الوظيفية، جامعة الشلف الجزائر، جوان 2020.

⁹ الصافات، 64 - 65.

¹⁰ الجاحظ، الحيوان، ج 5، تح: يحيى الشامي، ط 3، دار ومكتبة الهلال، 1990، ص 427.

¹¹ ينظر: الأمدي، الموازنة، ص 21.

¹² ينظر: نفسه، ص 125.

¹³ إلفت كمال الروي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، دار التنوير، بيروت، 2007، ص 208.

- 14 ينظر: الأمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحري، تح: محمد محي الدين صبحي، دار المسيرة، ص 21.
- 15 العربي عميش، طبيعة ابتداء المعاني الشعرية، مجلة اللغة الوظيفية، مج:6، العدد 1، مخبر نظرية اللغة الوظيفية، جامعة الشلف/ الجزائر، 2020.
- 16 أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ط 1، دار الشرق العربي، 2005، ص 119.
- 17 ينظر: ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 143.
- 18 ابن حني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط 3، عالم الكتب، 1983، ص 215.
- 19 قيس بن ذريح، ديوان قيس بن ذريح، ط 2، دار المعرفة، بيروت، 2004، ص 66.
- 20 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط 1، دار المدني، جدة، 1991، ص 131.
- 21 ابن المعتز، كتاب البديع، ط 2، دار المسيرة، 1979، ص 1.
- 22 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 90.
- 23 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 91.
- 24 أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص 83.
- 25 نفسه، ج 2، ص 85.
- 26 نفسه، ص 93.
- 27 ينظر: غبن أبي عون، كتاب التشبيهات، مطبعة جامعة كمبودج، 1950، ص 2.
- 28 النساء، 157.
- 29 أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، ص 83.
- 30 جان ماري جويو، مسائل في فلسفة الفن المعاصرة، تر: سامي الدروبي، ط 2، دار اليقظة العربية، بيروت، 1965، ص 73.
- 31 طرفة، ديوان طرفة بن العبد، تح: محمد مهدي ناصر الدين، ط 3، دار الكتب العلمية، 2002، ص 20.
- 32 ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 447.
- 33 ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 191.
- 34 الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968، ص 65.
- 35 النابغة، ديوان النابغة الذبياني، تح: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص 56.
- 36 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 90.
- 37 المرجع نفسه، ص 93.
- 38 ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 315.

9. قائمة المراجع:

❖ القرآن الكريم.

- 1- الأمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحري، تح: محمد محي الدين صبحي، دار المسيرة.
- 2- إلفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، دار التنوير، بيروت، 2007.
- 3- الباقلائي، إعجاز القرآن، تح: السيد صقر، دار المعارف، مصر.
- 4- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968.
- 5- الجاحظ، الحيوان، ج 5، تح: يحيى الشامي، ط 3، دار ومكتبة الهلال، 1990.
- 6- جان ماري جويو، مسائل في فلسفة الفن المعاصرة، تر: سامي الدروبي، ط 2، دار اليقظة العربية، بيروت، 1965.
- 7- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط 3، عالم الكتب، 1983.
- 8- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج 2، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

- 9- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار النهضة العربية، بيروت.
- 10- طاطة بن قرماز، بين الأسلوبية والنحو دراسة في التعالق والمجازة، مجلة اللغة الوظيفية، مج 7، العدد 1، مخبر نظرية اللغة الوظيفية، جامعة الشلف الجزائر، جوان، 2020.
- 11- طرفة، ديوان طرفة بن العبد، تح: مُحمّد مهدي ناصر الدين، ط 3، دار الكتب العلمية، 2002.
- 12- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط 1، دار المدني، جدة، 1991.
- 13- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، 1981.
- 14- العربي عميش، طبعة ابتداء المعاني الشعرية، مجلة اللغة الوظيفية، مج 6، العدد 1، مخبر نظرية اللغة الوظيفية، جامعة الشلف الجزائر، 2020.
- 15- أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ط 1، دار الشرق العربي، 2005.
- 16- ابن أبي عون، كتاب التشبيهات، مطبعة جامعة كمبودج، 1950.
- 17- قيس بن ذريح، ديوان قيس بن ذريح، ط 2، دار المعرفة، بيروت، 2004.
- 18- ابن المعتز، كتاب البديع، ط 2، دار المسيرة، 1979.
- 19- النابغة، ديوان النابغة الذبياني، تح: الشيخ مُحمّد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.